الفصل الثالث

نظم الحكم العلمانية

واجبات الخليفة وواجبات الرئيس في النظم العلمانية

● كانت التغيرات التي أصابت النخب الحاكمة في العالم الإسلامي هي الأخطر، بحكم ما لهذه النخب من نفوذ في جميع مجالات الحياة .

● لقد كان على الخليفة الذي يتولى رئاسة الدولة المسلمة عشرة واجبات أساسية :

أولها : حفظ الدين على أصوله المستقرة ،

والثاني : تنفيذ الأحكام الشرعية ،

والثالث : حماية الأمة من العدوان الخارجي ،

والرابع : إقامة الحدود لتُصَان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من الإتلاف ،

والخامس : تحصين الثغور بالعُدَّة المانعة والقوة الدافعة ،

والسادس : جهاد مَنْ عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يُسلم ،

والسابع : جباية الفيء والصدقات على ما أوْجَبَهُ الشرع ،

والثامن : تقدير المعاشات لمستحقيها ،

والتاسع : تعيين الأمناء ليقوموا بما يفوضهم فيه من أعمال ،

والعاشر : أن يشرف بنفسه على مصالح الدولة [1].

---

(١) الماوردي ؛ الأحكام السلطانية ؛ دار الكتب العلمية ؛ بيروت ؛ ص ١٥،١٦ (بتصرف يسير) .

وصف الإمام العادل

● وهذا وصف الإمام العادل كما رآه الحسن البصري رحمه الله . فقد أرسل «عمر بن عبد العزيز» إلى الحسن البصري يسأله عن صفة الإمام العادل ، فرد عليه برسالة طويلة قال فيها : «يا أمير المؤمنين إن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف».

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنُّها من أذى الحر والقَر».

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته».

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرة الرفيقة بولدها ، حملتْه كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته ، كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده».

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم».

«فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله ﷻ كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرَّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله»[1].

– الآن تغيرت هذه الأوصاف وتلك الواجبات جذرياً . فلم يعد من أول واجبات رئيس الدولة العلمانية «حفظ الدين على أصوله المستقرة» ولا «تنفيذ أحكام

---

(١) دكتور محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ؛ نشر مؤسسة الرسالة ؛ ط ١ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ؛ ص ٤٤٦- فقرة ٧٨٦ .

الشريعة» ، ولا «إقامة الحدود» ولا «جباية الصدقات» ؛ بل على رئيس الجمهورية أن : «يسهر على تأكيد سيادة الشعب وعلى احترام الدستور وسيادة القانون وحماية الوحدة الوطنية والمكاسب الاشتراكية . . » [1]

- ومن الجلي أن هناك تماثلاً بين بعض واجبات رئيس الجمهورية وواجبات الخليفة الإسلامي لكن هناك اختلافات جذرية بينهما ، بل هناك تعارض ظاهر . ولْنَأخذ واجب حماية المكاسب الاشتراكية كمثال ، فإنه يكفي لبيان التعارض بين النظامين ؛ فالاشتراكية تقوم على تأميم ممتلكات الأفراد ، وتحويلها إلى ملكية عامة . والأفراد يرفضون ذلك بطبيعة الحال . وعلى ذلك اعتُبر التأميم غَصْباً محرماً شرعاً .

- وهذا التعارض موجود بدرجات متفاوتة بين الشريعة الإسلامية وسائر الدساتير العلمانية الحديثة المعمول بها في البلاد المسلمة . وقد صارت أحوال الحكام ـ بسبب ذلك ـ شديدة الاختلاف عن أحوال أسلافهم القدامى الذين كانوا يحكمون البلاد قبل الغزو الاستعماري .

● إن هذه التغيرات باعدت بين «الدولة» و «الدعوة» وتسببت أحياناً في الصدام بينهما . وسنرى أنها أدَّت إلى تقليص حرية الدعاة ، وإلى تقييد الدعوة ، وربما إلى تسخيرها في خدمة التوجهات السياسية العلمانية السائدة .

● الدولة الوحيدة التي كانت تتآزر فيها الدعوة والدولة هي المملكة العربية السعودية منذ قيامها أول مرة على يدي الأمير محمد بن سعود والإمام محمد ابن عبد الوهاب ، رحمهما الله ، ومنذ ظهرت الدولة السعودية الحديثة على يدي المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٣٢م ، وحتى ٢٠٠١/٩/١١م [2] . فنسأل الله تعالى أن يديم عليها هذه النعمة .

---

(١) دستور جمهورية مصر العربية ؛ الباب الخامس ؛ مادة رقم ٧٣ .

(٢) تمت البيعة الأولى للملك عبد العزيز عام ١٣٢٠هـ- ١٩٠٢م (انظر : دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ للدكتور أحمد عبد الله عودات ؛ دار الخريجي للنشر والتوزيع ؛ بالرياض ؛ سنة ١٤٢٣هـ ؛ ص ١٦٢) .

● وقد وقعت عدة محاولات في بعض البلاد المسلمة لتأسيس نظام حكم إسلامي على أنقاض نظام علماني ، فواجهت صعوبات كبيرة ، ولم تحقق مبتغاها كاملاً حتى الآن .

● ففي إيران اندلعت ثورة شعبية ضد نظام الشاه ، وأطاحت به ، وأعلنت قيام الجمهورية الإسلامية على أنقاضه . لكن النظام الجديد واجه تمرداً عسكرياً قادته حركة «مجاهدي خَلْق» . ثم انقسم أنصار الثورة إلى إصلاحيين وتقليديين . وبعد أكثر من عشرين سنة من الثورة ، يشتد الانقسام ـ في فبراير سنة ٢٠٠٤م ـ إلى درجة الغليان بسبب حرمان كثير من الإصلاحيين من حق الترشيح للمجلس التشريعي .

● وفي أفغانستان أنشأت حركة طالبان إمارة إسلامية ، لكنها اتبعت سياسات أثارت عليها بعض القبائل الأفغانية ، وأغْضَبَت الولايات المتحدة ، لينتهي الأمر بغزو أمريكي للبلاد بمساعدة باكستان وإيران وبعض الدول العربية .

● وفي السودان قام بعض ضباط الجيش بانقلاب عسكري ضد حكومة منتخبة ، وأعلنوا أنهم سيقيمون دولة إسلامية . لكن العالم لم يتقبل الانقلاب على حكومة منتخبة ، فدخل السودان في نزاعات لا نهاية لها مع أبناء الجنوب ، ومع جيرانه ، ومع الغرب ، الذي سلَّح الجنوبيين وموَّلهم لكي يقوِّضوا نظام الحكم الإسلامي الجديد . ثم انقسم الثوار الإسلاميون على أنفسهم ، وزج الجناح الحاكم بزعيم الجناح البرلماني في السجن ، ولم يفرج عنه إلا بضغوط عديدة .

● ولا تزال هذه البلاد الثلاثة تعاني من الانقسامات ، ولا تزال معالم الدولة المسلمة المنشودة غير واضحة .

● ولكن على الرغم من هذا ، لا تزال الجماهير المسلمة في كل مكان متشبثة بالحكم الإسلامي وترى فيه السعادة في الدنيا والآخرة . وفي كل بلد من بلدان

المسلمين يوجد حزب أو جماعة أو تيار غايته تأسيس نظام حكم إسلامي . وفي المواجهة أحزاب وقوى علمانية ترفض التخلي عن النظام العلماني وتحميه بترسانة من القوانين والنظم .

تنحية القرآن عن الحياة لتثبيت النظم العلمانية

● وكان من الضروري لتثبيت النظم العلمانية تَسْويغ تنحية القرآن الكريم عن الحياة . وقد حاول النهوض بهذه المهمة عدد من المثقفين استناداً إلى النظرية العلمانية التي تقتضي نبذ الأديان والكتب السماوية ، والاستناد إلى الخبرة البشرية في تسيير الحياة العقلية والعملية .

– وقد عبَّر الدكتور محمد أحمد خلف الله ، أحد قادة الشيوعيين في مصر عن مفهوم تلك العلمانية فقال إن : « النص القرآني يُتَعَبَّد به فقط عندما يتعارض مع المصلحة العامة لجماعة المسلمين ، وتُقَدَّم المصلحة عليه في العمل »[1] .

● ولم يستطع الكاتب الشيوعي العلماني أن يعطي مثالاً واحداً لتعارض آيات القرآن الكريم مع المصلحة العامة لجماعة المسلمين ، وسبب ذلك أن التعارض الذي تحدث عنه مجرد وَهْم . وقد تحدث كبار علماء الأصول عن المصالح ، وتوسعوا في ذلك ، فَصَنَّفُوها إلى : مصالح معتبرة ـ أي مشروعة ، كالتجارة والزواج ، ومصالح مُلْغَاة ، أي محرَّمة ، كالربا والزنا ، ومصالح مُرسلة ، أي ليست خاضعة لنصوص دينية ، كالاختيار بين العمل في التجارة أو الزراعة ، فلكل مسلم أن يختار المهنة الحلال التي يريدها ، شريطة ألا يصادم نصاً من الكتاب أو السُّنة ، أو ينتهك المقاصد العليا للشريعة .

● وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله إن : « الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها . . وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها ، وحاصل بها ، وكل نقص في الوجود فسببه إضاعتها »[2] .

---

(١) الأسس القرآنية للتقدم ؛ كتاب الأهالي ؛ العدد الثاني ؛ سنة ١٩٨٤ ؛ ص ١٢ .

(٢) إعلام الموقعين ؛ جـ ٣ ص ٣ .

● لكن المصالح لدى العلمانيين هي مصالح الدنيا فقط ، لا مصالح الدنيا والآخرة ، أو المعاش والمعاد كما قال ابن القيم .

● هذا الفكر العلماني لقي القبول لدى النخب الحاكمة في كثير من دول العالم الإسلامي . وارتفع صوت العلمانيين في الجامعات ووسائل الإعلام ، وتسلم القيادة فيها نفر من الشيوعيين ، الذين روَّجوا للاشتراكية بوصفها مقدمة للشيوعية .

- ثم توالت الانقلابات العسكرية ، وشرعت في تطبيق الاشتراكية ، وأصدرت الدساتير والقوانين التي تكرسها وتحميها ، على الرغم من إرادة الشعوب المسلمة ، بل إن النظم الاشتراكية سلبت الشعوب إرادتها ، واستبدت بتقرير مستقبلها . ولم يتراجع الحكام الاشتراكيون عن غيهم على الرغم من الفشل الذريع الذي واجههم في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية . ثم انهار المعسكر الشيوعي ، فهرولوا مرغمين إلى المعسكر الرأسمالي الأمريكي الذي اعتبروه عدوهم على امتداد نصف قرن !

- وتقيَّد الدعاة ، كسائر المواطنين ، بالدساتير والقوانين العلمانية السائدة في بلادهم ، وواجهوا مصاعب جمة في أداء واجبات الدعوة ، نظراً للتعارض بين الإسلام والاشتراكية والعلمانية عامة . وحاول بعض الكتاب المسلمين في رفق بالغ تذكير الحكام بأن النظام الاقتصادي الإسلامي أعْدَل من النظام الاشتراكي في توزيع ثروات البلاد . وكتب بعضهم عن : «اشتراكية الإسلام» وهو يعلم أنه لا اشتراكية في الإسلام بأي معنى من المعاني المعروفة للاشتراكية . ولكن الحكام الاشتراكيين كانوا قد توغلوا في تطبيق الاشتراكية ، وفي الارتباط الوثيق بالمعسكر الشيوعي ، ثقافياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، بحيث لم تعد أمامهم فرصة للتراجع إن أرادوا .

الداعية في مواجهة العصا والجزرة

● ومن التحديات المستحدثة التي تواجه الدعاة اليوم سياسات «العصا والجزرة»، أو التلويح بالسيف والذهب ، التي تنتهجها الحكومات والنظم العلمانية .

- واختيار الداعية المسلم الحق معروف ، وهو : طاعة الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . والأصل هو مسلك رسول الله ﷺ ، حين قال لعمه أبي طالب : « يا عم ، واللهِ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته »[1].

- ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الذين اتبعوه الأسوة الحسنة . وقد ذكر ابن سعد أن ناساً من « رعل ، وذكوان ، وبني لحيان » جاءوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يبعث معهم رجالاً يعلمونهم القرآن والسنة ، فبعث سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم « القراء » كانوا يقرأون القرآن ، ويتدارسون بالليل ، ويتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالمال فيضعونه بالمسجد ، ويحتطبون فيبيعونه ، ويشترون به الطعام لأهل الصُّفة والفقراء . فبعثهم النبي ﷺ إليهم ، فعَرَضُوا لهم ، فقتلوهم قبل أن يبْلُغوا المكان »[2]. وقد سُميت تلك المذبحة باسم « بئر معونة » .

● وفي عصور الإسلام المختلفة وقعت مصادمات بين الحكام والأئمة . ولم تكن نظم الحكم علمانية ، ولكنها كانت غير ملتزمة بشريعة الله ، فشاركت النظم العلمانية في القسوة على الدعاة .

- من ذلك مثلاً أن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي ـ أمير المدينة المنورة في عهد الخليفة المنصور العباسي ـ عاقب الإمام مالكاً بالضرب العنيف حتى خلع كتفه ، لا لشيء إلا أنه أفتى ببطلان البيعة المأخوذة بالإكراه ، فمكث الإمام المجاهد رحمه الله : « لا يقدر أن يزر زرَّه بيده اليسرى من شدة ما مُدَّت حيث ضُرب »[3].

● وأنكى من قصة تعذيب مالك ، محنة الإمام المجاهد أحمد بن حنبل رحمه الله على يد خلفاء بني العباس : المأمون ، والمعتصم والمتوكل ، الذين سجنوه ثمانية وعشرين شهراً ، وأذاقوه أشد العذاب ، لا لشيء سوى رفضه لبدعة المعتزلة القائلة إن القرآن مخلوق[4].

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٢٦٦ .

(٢) الطبقات الكبرى ؛ جـ ٣ ص ٥١٠ .

(٣) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٢٠٣، ٢٠٤ .

(٤) « ثلاثة كتب عن المسند » ؛ تحقيق أحمد محمد شاكر ؛ مكتبة السنة ؛ طبعة سنة ١٤١٠هـ - ١٨٨٠م ؛ ص ٧٩ - ١١٤ .

● وفي العصر الحديث تعرض كثير من الدعاة للاعتقال والتعذيب والقتل لرفضهم للعلمانية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية . ونحن نذكر فظاعات كمال أتاتورك في تركيا ، وأحمد سوكارنو في إندونيسيا ، وزياد بري في الصومال ، وصدام حسين في العراق .

- وفي البلاد الأوربية التي تدعي أنها بلاد الحريات والديموقراطية ظهر العداء الشرس بين العلمانية والإسلام . ففي إيطاليا قبضت الشرطة يوم ١٩٩٥/٥/٢٦ على أكثر من ثمانين شخصاً من المسلمين المقيمين في ميلانو ، والحاصلين على الجنسية الإيطالية ، والذين كانوا من رواد المعهد الثقافي الإسلامي ، والمُسْهمين في الدعوة إلى الله ، قبضت عليهم واتهمتهم بتشكيل تنظيم للمافيا وبأنهم يعملون لتقويض المجتمع الإيطالي وفرض الشريعة الإسلامية عليه بالقوة!

- وكانت تلك الاتهامات نكتة سمجة ، لكن الإعلام الذي يعاني من العنصرية والتعصب ضد الإسلام ، ضخم نكتة الشرطة ، واخترع لها اسم « قضية أبو الهول » مرة ، و « قضية المافيا الإسلامية » مرة أخرى!

- ثم جاءت لطمة القضاء العادل من محكمة الاستئناف العليا في روما ، إذ قضت بحفظ القضية الملفقة والإفراج عن المتهمين الأبرياء . لكن حكم البراءة لم يكن كافياً لتعويض الضحايا عن أيام المحنة في السجون والتشنيع في الإعلام!

- وتكررت هذه الاعتداءات على الدعاة المسلمين في دول المعسكر الشيوعي ، وفي ألمانيا وفي تركيا ، والولايات المتحدة ، بُغْية إخراس الدعاة وشلِّ حركتهم .

دروس من تاريخنا الإسلامي

● وفي تاريخنا الإسلامي دروس عظيمة ترشدنا إلى تصحيح العلاقة بين الدعوة والدولة ، وتضيء لنا الطريق لتصحيحها .

دروس من العصر الأموي

● ففي العصر الأموي دروس مفيدة لنا اليوم . فيذكر أنه قيل للحسن البصري : ألا تدخل على الأمراء فتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر؟

- قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه . إن سيوفهم لَتَسْبِقُ ألْسِنتنا! إذا تكلمنا قالوا بسيوفهم هكذا » ، ووصف للسائل ضرب السيوف للرقاب[1].

- حدث هذا في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي أسرف في سفك دماء المسلمين .

● ولو أن بني أمية صانوا دماء المسلمين وردعوا الحجاج لما ضاعت دولتهم بعد قيامها بأقل من مائة عام . ولو أنهم أنصتوا لنصائح العلماء والدعاة من أمثال الحسن البصري لتجنبوا كوارث عظيمة وثورات مدمرة .

● فمن مصلحة الدولة أن تستمع للدعوة وترعاها ، ولا تهدد حياة الدعاة المخلصين الذين ينتقدون الأخطاء ، ولا يسايرون الحكام وينافقونهم . فهذا من مصلحة الحكام كما هو من مصلحة الرعية .

● ولقد مات الحسن البصري سنة ١١٠هـ ، وبعد وفاته باثنين وعشرين سنة سقطت الدولة الأموية في دمشق (سنة ١٣٢هـ) ، وكانت جرائم الحَجَّاج من أهم أسباب إثارة المسلمين ضدها ، وتأييدهم للثوار والمتمردين عليها .

ودروس من العصر العباسي

ولقد جلس الخليفة العباسي « المستضيء » بين يدي ابن الجوزي رحمهما الله فوعظه فقال : « يا أمير المؤمنين! إن تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكت خفتُ عليك ، وإن قول القائل لك : « اتق الله » خير لك من قوله لكم : « إنكم أهل بيت مغفور لكم » . وأضاف الشيخ قائلاً : « كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : « إذا بلغني عن عامل أنه ظَلَمَ فلم أغيِّرْه ، فأنا الظالم! » وقال الشيخ أيضاً : « يا أمير المؤمنين! كان

---

(١) دكتور عبد الرحمن بدوي ؛ تاريخ التصوف الإسلامي ؛ وكالة المطبوعات بالكويت ؛ ط١ سنة١٩٩٧.

يوسف عليه السلام لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع . وكان عمر ابن الخطاب يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقر أوْ لا تقرقر ، والله لا ذاقَ عمر سمناً ولا سميناً حتى يَخْصَبَ الناسُ!»

- وتأثر الخليفة «المستضيء» بعظة الشيخ الجليل تأثراً بليغاً ، حتى أجْهَش في البكاء ، وتصدق بمال كثير ، وكَسَى عدداً كبيراً من الفقراء ، وأطلق المحابيس .

كانت الدولة والدعوة - غالباً - في طريق واحد ، تساند إحداهما الأخرى . وكانت المقاصد العليا للدعوة والدولة نُصرة الإسلام وتعبيد العباد لله الواحد الأحد ، على الرغم مما هو معروف عن معاصي الأمويين والعباسيين والمماليك وآثامهم . لم تكن هناك فلسفة علمانية ، تتبناها قوى أجنبية استعمارية وتحاول إحلالها محل الإسلام ، كما هو الحال اليوم ، فكان الحكام مسلمين يصغون للدعاة غالباً . وحين كان يشذ بعضهم ويبطش بالدعاة ، كان الدعاة يحجمون - غالباً - عن تبصيرهم وإرشادهم ، كما فعل الحسن البصري في أيام الحجاج ، فلما تولى عمر ابن عبد العزيز مقاليد الخلافة كتب إليه ووعظه .

● ولقد قدم الخليفة المهدي العباسي للحج ، فلما أخذ في الطواف ، نَحَّى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق فَلَبَّبَهُ بردائه ، وهزَّه ، وقال له : «انظر ما تصنع! مَن جَعلك بهذا البيت أحق ممن أتاهُ من البعد حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه! وقد قال الله تعالى ﴿ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ (الحج:٢٥) ؟ من جعل لك هذا ؟!

- وغضب المهدي ، وكان من حقه أن يغضب ، فما كان يجوز نُصح الخليفة بتلك الطريقة العنيفة . وأمر المهدي بحمل ابن مرزوق إلى بغداد حيث كَلَّفَه بأن يسوس الدواب ، وضموا إلى الإسطبل فرساً عَضوضاً ليعقره[1]. وكانت العقوبة قاسية وغير مناسبة لرجل غيور على دينه ، وإن حَمَلَتْهُ الحمية الدينية على الخطأ في حق الخليفة .

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١٢ .

- وفي عام آخر ، ذهب المهدي للحج ، فرآه المحدِّث الكبير سفيان الثوري ، وقد أخذ حرسه يُبعدون الناس عنه بالسياط ، فتقدم إليه في رفق وبيّن له سنة رسول الله ﷺ ، فلم يعاقبه[1].

● تُرى ، هل يمكن أن نتعلم شيئاً من هذه الدروس ؟

● وفي تاريخنا الإسلامي الحديث ، حرص الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على إيجاد حاكم يحتضن دعوته السلفية . وقد وجد بُغيته - أولاً - في « حريملاء » ، لكن جماعة معادية للدعوة كانت تهدد حياته وحياة أتباعه ، فاضطر إلى تركها : « باحثاً عن نصير يحميه ويشد أزْرَه . فكان هذا النصير هو « عثمان ابن معمر أمير بلدة العيينة »[2]. ومرة أخرى رحل الإمام عن العيينة بسبب ضغوط معادية لدعوته ، مارسها حاكم « الإحساء » على حاكم الدرعية .[3]

● ومن فضل الله تعالى أن يسر لذلك الإمام الإصلاحي الرائد فرصة الانتقال من بلدة إلى بلدة إلى أن وَجدت دعوته الحمأية والنصرة عند الأمير محمد ابن سعود رحمه الله . لكن الدعاة في الدول العلمانية لا يجدون مثل هذه الفرصة هذه الأيام .

● إن الدولة في العصور الحديثة تسيطر على التعليم والإعلام ، وعلى الدعوة في المساجد . ولا يستطيع داعية أن يمارس الدعوة إلا بإجازة من السلطات العلمانية . وتتحكم الدول في مؤسسات النشر الكبرى ، وفي مؤسسات توزيع الصحف والكتب ، وإنتاج الأفلام والأشرطة ، والمسارح ودور السينما . وقليل من الدول المسلمة تدع مساحة من الحرية للدعاة . وتتبنى معظم النظم السياسية « الاجتزاء » من الإسلام ، فتقبل العبادات ، وترفض المعاملات . وعلى هذا تسمح للدعاة بالعمل في إطار « الاجتزاء » فقط وتمنع الذين يدعون للإسلام في شموله وكماله ، دون انتقاء أو بتْر أو اجتزاء

---

(١) إحياء علوم الدين ؛ جـ ٢ ص ٣١٣

(٢) د . عبد الرحيم عبد الهادي ؛ دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية ؛ ص ٢٨ .

(٣) نفسه ؛ ص ٣١ .

● وقد ذكَر تقرير التنمية البشرية ـ الذي أعَدَّه خبراء عرب مستقلون بتكليف من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والذي صدر يوم ٢٠/١٠ /٢٠٠٣م ـ أن حرية الصحافة مقيدة بقيود شديدة في دول العالم العربي : «وتكشف الممارسات الفعلية في العديد من الدول العربية عن انتهاكات مستمرة لهذه الحرية ، سواء بإغلاق بعض الصحف أو مصادرتها أو تعطيلها»[1]. وهذه القيود تسيء إلى سمعة الدول العربية وتؤذي شعوبها .

- وقد ذكر تقرير العام ٢٠٠٢م شيوع هذه الظاهرة السلبية نفسها ، وفصَّل التقرير القول في وصف انتهاكات الحريات العامة ، ولكنه لم يتطرق إلى أسباب هذه الظاهرة .

● ولعلِّي لا أجافي الحقيقة إذا قلت إن تعارض الدعوة الإسلامية مع مبادئ الحكم العلماني الذي يطبقه العسكر الانقلابيون هو السبب الأساسي . فالشعوب المسلمة رافضة للحكم العسكري العلماني مهما تَخَفَّى في اللباس المدني وخَلَعَ السُّتْرات العسكرية . وهذه النظم تعرف موقف الشعوب منها ، وتعلم أن صيانة الحريات العامة ، والانتخابات النزيهة كفيلة بإسقاط نظمهم . ولا سبيل إلى البقاء على رأس شعوبهم إلا بانتهاك الحريات والتحكم في الصحافة والإذاعة والتلفزة ، والتعليم والفنون والآداب ، والدعوة الإسلامية .

ونتيجة لهذه الأوضاع حُوصرت الدعوة الإسلامية حصاراً خانقاً بحيث لا يكاد يُكتب عن الإسلام شيء ولا يقال شيء إلا في حدود محددة . وكل مَن يخرج عليها يُسحب منه الترخيص الرسمي ، وبعد ذلك لا يعرف طريق الإذاعة أو التلفاز ، أو دور النشر والتوزيع . وتَعَرَّضَت الحياة الأدبية والفنية والفكرية للكبت فأصابها الضمور والضعف بعكس العهد الملكي الذي ظهر فيه كبار كتاب مصر ومفكريها .

* * *

(١) جريدة الأهرام اليومية في ٢١/١٠/٢٠٠٣ .